المحاضرة الثانية:

اللغة العربية الجذور والهوية:

تنتمي اللغة العربية إلى حقل واسع من اللغات الأخرى، وتسمى هذه العائلة باللغات السامية، فعلى الرغم من إشكالية هذه التسمية، والردود التي تدور حولها، إلا انها الأشهر والأكثر استعمالا.

اللغات السّامية:

هي فرع من عائلة اللغات الأفروآسيوية (بالإنجليزية: Afro-Asiatic)، ينتشر متحدّثوها، في أنحاء شمال شرق أفريقيا وجنوب غرب آسيا، أي في منطقة العالم القديم ونشوء الحضارات القديمة، وهي منطقة العراق والشام ومصر والحبشة، وقد لعبت دوراً بارزاً في التطوّر اللغويّ والثقافيّ، في الشرق الأوسط لأكثر من 4000 عام، إذ أسهمت هذه اللغات في تشكيل الهوية المعرفية والتاريخية لهذه المنطقة وأبنائها.

وتعد اللغة العربية الأكبر والأوسع والأكثر استعمالا، من بين بقية اللغات السامية الأخرى، ويرجع سبب تسمية هذه العائلة من اللغات بهذا الاسم، إلى الجهود التي وفرها علماء التوراتيات وما يتحدث عنه العهد القديم، من أن الاب الأعلى لهذه المنطقة الجغرافية، والتي يعود سكانها له، هو سام بن نوح النبي، في حين سُمّيت اللغات الأفريقية القديمة باللغات الحامية، نسبة إلى حام بن نوح النبي أيضا!

للغة العربية أخوات شقيقات، بعضهن اندثر والبعض الأخر ما زال حيا حتى اليوم، ومن تلك اللغات، اللغة العبرية، وهي لغة التوراة واللغة الدينية لليهود، ويتحدث بها حول العالم قرابة 7 مليون انسان، وكذلك اللغة المالطية، التي يتحدث بها عموم سكان جزيرة مالطا في البحر المتوسط، وكذلك الآرامية والسريانية والمندائية، وهي مجموعة لغات دينية خاصة، تستعمل لأغراض دينية صرفة، بعد أن كانت لغات عامة يتحدث بها الناس.

العربية البائدة والعربية الباقية:

تنقسم اللغة العربية على قسمين، عربية بائدة وعربية باقية، ويطلق على البائدة بأنها لغة عرب الجنوب، أي لغة أهل اليمن وعمان ونجران، ومنها اللحيانية والثمودية والمعينية والسبأية وغيرها، وتشترك هذه اللغات أو اللهجات مع العربية في الكثير من المزيات، منها النبر الصوتي المشابه، وكذلك طريقة بناء الجملة، غير أنها تختلف عن عربية اليوم، في الحروف المستعملة، فهي تُكتب بالحرف المسند، الذي يقابل الحرف العربي من حيث الصوت بشكل كبير جدا، لكنه يختلف عنه من حيث الرسم، وقد اندرست هذه اللغات واختفت بمرور الزمن، حتى لا تجد اليوم من يتحدث بها.

أما العربية الشمالية، فهي التي نطلق عليها بالفصحى، وهي اللغة التي نزل بها القران الكريم، وكانت مختلف قبائل العرب من الجزيرة الفراتية حتى جنوب الجزيرة العربية تتحدث بها، وهذه اللغة تشكلت بفعل تلاقي اللغة الآرامية مع العربية الجنوبية، فأخذت عن الآرامية بعض صورة الحرف، وعن الجنوبية الصوت والنبر، وبمرور الوقت، أصبحت لغة مستقلة تحمل مزاياها وصفاتها التي تفرقها عن غيرها.

وتشترك اللغات السامية في مجموعة من الخصائص تثبت القرابة بينها، وهي:

1. تعتمد اللغات السامية على الحروف بشكل أكبر من اعتمادها على الأصوات، لذا لا توجد علامات صوتية بين الحروف كما هو الحال بين اللغات الآرية.

2. ترجع اغلب الكلمات في اللغات السامية إلى أصل ثلاثي، ويتم بناء الكلمات عبر إضافة حروف على هذا الجذر، اما في بداية التركيب او في نهايته غالبا.

3. يرجع اشتقاق الكلمات في اللغات السامية إلى الفعل، فالأغلب في مظهر كلمات اللغات السامية هو الفعلية، ففي اللغات السامية يكون الفعل كل شيء، فمنه تتكون الجملة ويخضع الاسم للفعلية في كثير من الحالات.

4. ليس في أصل اللغات السامية أثر للإدغام، وهو ان تندمج كلمتين حتى تصير الكلمتان كلمة واحجة وتدل على معنى مركب، من معنيين مستقلين سابقين، وهذه الظاهرة نادرة الوجود في العربية.

5. يمثل الاعراب في اللغتين العربية والعبرية، أصلا دالا على وجود مشتركات سابقة بين هذه العائلة من اللغات، وهذه الظاهرة "الاعراب" نكاد لا نجدها في بقية اللغات، الهندو اوربية والآرية حتى.

6. تميل اغلب اللغات السامية الى الشفاهية دون الكتابية، وهذا ما اثبتته الدراسات الفنية في هذا المجال، على اللغات الآرامية والسريانية والعربية والعبرية، في حقل الشفاهية والكتابية.

يذكر الدكتور خير الدين قباوه، ان اللغة العربية تنقسم على أكثر من مستوى استعمالي، وهي:

1. الفصحى: وهي الطبقة العالية من اللغة، والتي نزل بها لقران الكريم، وهي لغة الشعر العربي القديم، ولغة خُطب النبي صلى الله عليه وآله، ومن مصاديق الفصحى خطب أمير المؤمنين في نهج البلاغة، وكذلك شعر القصائد المعروفات بالمعلقات، فهي لغة عالية فنية.

2. الفصيحة: وهي الطبقة التي تلي الفصحى رتبة ومكانة، ولا تقل عنها، لكنها لغة الحديث النبوي والأخبار، وكذلك هي لغة العلم والدين، وتقوم وظيفتها في تأدية المراد على أدق وجه، دون كثير من الفنيات والبديعيات.

3. الصحيحة: وهي الطبقة الثالثة من حيث الأهمية، وهي اللغة التي يتحدث بها عموم العرب في ذلك الزمان، فهي لغة كافية وافية، تؤدي الغرض بالإبانة والإفهام، وهي لغة الدواوين والمخاطبات ولغة أرباب الوظائف العمومية، وهذه اللغة "حسب دكتور خير الدين"، هي التي يجب أن ننشدها ونروم الوصول لها، فالطبقتين السابقتين صعبتين جدا على لسان عربنا اليوم.

4. السلمية: وهذه الطبقة تصف حال لسان العوام من الناس في ذلك الزمان، والتي يجب ان تكون اليوم لغة المهندس والمحامي والعامل في الخدمة العامة، وهي لغة تبتعد كل البعد عن الفنيات، وما هدفها إلا توضيح المراد وفق القواعد والسياقات المتبعة.

5. العامية: وهذه الطبقة مبتذلة مرذولة يجب ان نرتفع عنها، لأنها مختلطة باللغات الأخرى، ومبتعدة كل البعد عن قانون العربية وإعرابها، فلا هي من العربية ولا العربية منها في شيء، ولا تمت للعربية بصلة إلا اللهم في استعمال الصوت العربي، فكلام العوام في يومنا هذا، إذا ما عُرض على ذوي اللغة لعدوه من لسان الأعاجم قطعا.